مـــــدارس تحليل الخطاب

السنة الأولى ماستر تخصص: الاتصال الجماهيري والوسائط الجديدة

أ/ وشان

في البداية لا بد من الإشارة إلى أن تقسيم تحليل الخطاب إلى مدارس غير متداول خارج فرنسا لأنه من وضع الباحث الفرنسي دومينيك مانغونو. بل أن الأمريكيين أنفسهم لا يستعملون هذا التقسيم، كما أنّهم ينظرون إلى حقل التداولية وتحليل المحادثة والتفاعل الاجتماعي على أنّها حقول مستقلة بنفسها.

سنركز من خلال هذه المحاضرة على المدرستين الفرنسية والأنجلوسكسونية في تحليل الخطاب، بالإضافة إلى التحليل النقدي للخطاب عند كل من فيركلاو وفان دايك؛

المدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب

إنّ تحليل الخطاب في منابته الفرنسية أو فيما يطلق عليه المدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب، الذي يمثل رواد أمثال ألتوسير وفوكو خلفيتها النظرية، انصب اهتمامه على علاقة اللغوي بالإيديولوجي في إعادة قراءة للفكر الماركسي مع ألتوسير وإن كان في سياق ابستمولوجي فرنسي يعود إلى باشلار Bachelard وكونقويلهام Canguilhem، وفي محاولة بيان أنّ الإيديولوجي لا ينفصل عن إنتاجاتنا المعرفية المختلفة، وعن خطاباتنا، فالإيديولوجيا كامنة في لاوعينا، وتعكسها خطاباتنا المختلفة التي نستعمل. وقد دافع ألتوسير عن أطروحتين أولهما أنّ الإيديولوجيا هي تمثيل للعلاقة المتخيلة للأفراد بالشروط الواقعية لوجودهم، فعلاقات الناس بشروط وجودهم هي التي تمثلهم، وهي مركز كل تمثيل إيديولوجي، وبذلك مركز كل تمثيل متخيل للعالم الواقعي. وثانيهما أنّ الإيديولوجيا هي وجود مادي فالجانب العملي هو الذي يحدد هوية الأفراد ونمط حياتهم.

لقد قدم بعض رواد هذه المدرسة من أمثال هاريس، جنيت، بنفنست، بيشو وغيرهم دراسات وأبحاث رائدة ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد نشر"هاريس"بحثا عنوانه: تحليل الخطاب-سنة- 1952، وكذا دراسة "ميشال بيشو" المعنونة ب .:التحليل الآلي للخطاب"1969،وقد اعتبره الكثير من الدارسين أنه يعد من أبرز ممثلي المدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب، أما نواة هذه الدراسات في مجال تحليل الخطاب فقد تمثلت في دراسة نوع من الخطاب السياسي من خلال الاعتماد على منهجية سوسيولسانية بسيكولسانية مستوحاة من تصور كل من ماركس وألتسير ولاكان، كل هذا جعل تصور المدرسة الفرنسية ينطلق من رؤية عبر لسانية تؤكد فيها على أن الذات المتكلمة هي مصدر المعنى، بل إن بنية الاستعمال اللغوي للخطاب في النص هي الحاملة للمعنى، من أجل ذلك تبنت هذا الطرح الإجرائي القائم على تفكيك بنية استعمال لغة الخطاب في النص، فقد أشار موشلر إلى أن المدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب مارست التحليل على مدونات مكتوبة- بخاصة الخطاب السياسي- قائمة على تشكيلات خطابية تنطوي على دلالات سياقية جعلتها تعتمد على نظريات التلفظ اللسانية التي أقرها- بنفنست.

من بين ما يميز تحليل الخطاب ضمن هذه المدرسة هو الوصف الدقيق والشامل لحياة العلامات اللغوية ضمن المجتمع، وتركز على الجوانب اللغوية/اللسانية بشكل كبير، إذ يفترض تحكم الباحث باللسانيات حتى يتسنى له التحليل. كما تعتمد هذه المدرسة على التحليل النحوي المعجمي L'analyse Lexicale.

المدرسة الأنجلوسكسونية في تحليل الخطاب

انطلاقا من الأسس التي أرساها هاريس في تحليل الخطاب، ظهر في الستينيات تيار تحليل المحادثة analyse conversationnelle الذي استهدف التخاطب في الحياة اليومية على الخصوص. أسس لهذا التيار زمرة من الباحثين في الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع أمثال هارولد غارفينكل H. Garfinkel وهارفي صاكس H. Sacks وإيمانويل شيغلوف E.Schegloff وغايل جسفرسون G.jefferson. ويعتبر غارفينكل هو المؤسس الفعلي لتيار الإثنوميتودولوجيا الذي ينظر إلى عملية التفاعل الكلامي على أنها تحكم في قوانين محددة تحكم العلاقة بين المتكلم والمتلقي. ثم تطور مفهوم التخاطب إلى مفهوم للخطاب على يد كل من صاكس وشيغلوف وجيفرسون الذين نظروا إلى موضوع التخاطب على أنه الخطاب.

ولقد استلهم هذا الاتجاه من البراغماتية الأمريكية والتحليل النفسي الإنجليزي وكذا نظرية أفعال الكلام، يبحث تحليل الخطاب ضمن المدرسة الأنجلوسكسونية على نقيض الفرنسية؛ في القواعد التي تنظم التفاعلات والمحادثات بين الفاعلين. ومن أهم التيارات التي شكلت مرتكزا لهذه المدرسة نجد:

التيار التداولي:

يقول موشلار Moeschler أنّ التداولية تهتم باللغة عند استعمالها أي استعمال اللغة أو الاستعمال اللغوي، حيث تعنى التداولية بدراسة الاستعمال، وإذا كنا نتحدث عن الاستعمال اللغوي فإنّ هذا الاستعمال ليس حياديا، نلمس آثاره ليس على مسار التبليغ فحسب بل على النظام اللغوي نفسه. ذلك أنّ بعض الكلمات الدالة على الزمان والمكان (الآن، هنا، أنا) لا يمكن تأويلها إلا في سياق قولها.

استند هذا المفهوم إلى أعمال فلاسفة أمريكيين وخاصة محاضرات وليام جايمس في جامعة هارفرد سنة 1955، وكذلك إلى أعمال أوستين الذي تمكن من إرساء أسس نظرية الأعمال اللغوية التي أصبحت بعد ذلك المحور الأساسي في التداولية. وقد حدد أوستين ثلاث خصائص للفعل اللغوي تميز مدى ترابط هذا الفعل مع الخطاب، فأوستين يرى أنه: فعل دال، فعل إنجازي، أي ينجز الأشياء والأفعال الاجتماعية بالكلمات، فعل تأثيري، أي يترك آثارا معينة في الواقع، خصوصا إذا كان فعلا ناجحا.

فتحت هذه البحوث آفاقا أمام البحوث التداولية وخاصة أمام تحليل الخطاب، وذلك عندما أضافت إلى اللغة وظيفة أخرى غير الوظيفة الوصفية وهي الوظيفة العمليّة أي تحقيق أعمال هي الأعمال اللغوية، وباهتمامها أيضا بالأعمال اللغوية وغير اللغوية المكوّنة للخطاب. حيث جاءت المقاربة التداولية لتمد الجسور نحو لسانيا جديدة وهي لسانيات التلفظ (المقاربة التلفظية) مع كل من بنفنيست (Benveniste) وأوستين Austin حيث اهتمت التداولية بالعلاقة القائمة بين الملفوظ والتلفظ أي بين نتيجة القول وفعل القول ذاته.

التيار البنيوي:

أفاد تحليل الخطاب في المدرسة الأنجلوسكسونية من التداولية وأفاد كذلك من التيار البنيوي وخاصّة أعمال رومان جاكبسون من خلال أبحاثه الخاصة في نظرية التواصل، وسعت هذه النظرية اهتمام الباحثين بتحليل الخطاب وذلك على مستويين: مستوى الانفتاح على جوانب كانت مهمّشة إلى عهد قريب في فضاءات تحليل النص، ومستوى ثان يتجسد في الدفاع عن ضرورة بناء نظرية تحليلية للخطاب تكون مؤهلة لمقاربته في جوانبه المختلفة. وقد ساعد هذان المستويان على ظهور آفاق جديدة على مستوى تحليل الخطاب.

وركز جاكبسون –ضمن عملية التواصل– على السياق الذي تتّم فيه هذه العمليّة دون إهمال جوانب الخطاب اللغوية والدلالية والإيقاعية، وهذا ما دعا محللي الخطاب إلى أخذ هذه الجوانب كلها بعين الاعتبار في بحوثهم، وذلك في أبعادها التواصلية اللغوية وغير اللغوّية. إن اعتبار التواصل أهم عمليّة في مجال الخطاب يجعل منه وظيفة أساسية

للخطاب ومبحثا مهما لتحليل الخطاب، وذلك لارتباط وظيفة التواصل بمنتج الخطاب وبمتلقّيه وبالسياق الذي يدور فيه، ويصبح استعمال اللغة مرتبطا بإنتاج وظيفة معينة.

التحليل النقدي للخطاب عند فيركلاو Fairclough وفان دايك Van Dijk:

انتقل عالم اللغة الإنجليزي نورمان فيركلاو Norman Fairclough من حقل الدراسات اللغوية إلى تطوير نموذج للتحليل النقدي لكافة أشكال الخطاب بما فيها الخطاب الإعلامي، ثم قام مؤخرًا بتوسيع مجال عمل نموذجه التحليلي بحيث يشمل كافة مجالات البحوث الاجتماعية، فالتحليل النقدي للخطاب هو تحليل للعلاقات الجدلية بين الخطاب – والذي لا يشمل اللغة فقط بل والسيميولوجيا والصور المرئية – وكل عناصر الممارسة الاجتماعية، ومع ذلك يؤكد فيركلاو أن التحليل النقدي للخطاب يهدف إلى توضيح كيف أن التغييرات في استخدام اللغة تعكس التغييرات الإجتماعية – الإقتصادية والتي ترتبط بعلاقات القوة والهيمنة في المجتمع، لذلك يدعو فيركلاو علماء الاجتماع إلى تحديد أفكارهم ومناهجهم وأدواتهم البحثية لدراسة الخطاب.

يعد تون فان دايك أحد أشهر باحثي دراسات الخطاب، وهو أحد مؤسسي لسانيات النص من خلال مؤلفه "النص والسياق" و"أبحاث في دلالة وتداول الخطاب"، وقد حاول من خلال مقارباته البحثية دراسة الخطاب والسلطة.

لا يعتبر فان دايك تحليل الخطاب منهجا، وإنّما هو من وجهة نظره مجال للممارسة العلمية يتوزع بين ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية كلها، وهو يفضل إطلاق تسمية دراسات الخطاب على هذا الميدان من المعرفة. أمّا بالنسبة لتحليله فلا يحلل بوصفه لفظا مستقلا بذاته فحسب بل بوصفه كذلك تفاعلا موقفيا أو ممارسة اجتماعية أو نوعا من التواصل في موقف اجتماعي أو ثقافي أو تاريخي أو سياسي محدد.

يركز تحليل الخطاب المعاصر – حسب فان دايك- : "على الدور الأساسي لفهم دور النص والحديث في المجتمع فلا تمارس الخطابات المهيمنة نفوذها خارج نطاق السياق فحسب، وعند تعريف الخطاب بوصفه حدثا تواصليا نأخذ بالحسبان المجالات الاجتماعية العامة التي وظفت فيها السياسة والإعلام والتعليم والأفعال الاجتماعية العالمية التي أنجزت بها..".

عوامل تنوع مدارس ودراسات تحليل الخطاب

تختلف التقاليد العلمية والفكرية والتي تعود إلى تعدد التيارات في مجال تحليل الخطاب وكذا المدارس وتوجهاتها.

- ✓ تنوع التخصصات الداعمة؛ فتحليل الخطاب يأخذ شكل الحقل المعرفي الذي يمنحه الدافع البحثي، فنجد أن الأنتروبولوجيا وعلم الاجتماع قد لعبا دورا أساسيا في تشكيل تحليل الخطاب في الولايات المتحدة الأمريكية، أما في فرنسا فيعود الفضل للتحليل النفسي، الفلسفة والتاريخ كتخصصات أثرت فيه.
- ✓ تنوع التموضعات Positionnement ومواقع المحللين داخل المدارس ذاتها.
- ✓ أنواع المدونات Corpus التي يفضلها الباحثون.
- ✓ مظهر النشاط الخطابي الذي يؤخذ في عين الاعتبار في عملية التحليل؛ عوامل الظهور، التداول، استراتيجيات الإنتاج، التلقي، التفسير ..

بعض المراجع المعتمدة:

محاضرات في مقياس تحليل الخطاب موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر الاتصال الجماهيري والوسائط الجديدة، (2022)، جامعة غليزان.

خولة طالب الإبراهيمي، (2003)، عن التداولية، مجلة اللغة والأدب، المجلد 10، العدد 01.

صابر الحباشة، (2010)، لسانيات الخطاب، ط1، سورية، دار الحوار.

فتيحة بن يحي، (2022)، محاضرات في مقياس الأسلوبية وتحليل الخطاب موجهة لطلبة الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان.

فريدة موساوي، (2019)، مفهوم تحليل الخطاب عند زيليغ هاريس، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مجلد 08، ع 04.

فطومة بن مكي، (2019)، مطبوعة محاضرات في مقياس تحليل الخطاب موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر اتصال وعلاقات عامة، جامعة الجزائر 03.